مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(٢ كورنثوس ٤: ٦-١٥)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ الذي أمَرَ أن يُشرِقَ من ظلمةٍ نورٌ هو الذي أشرقَ في قلوبِنا لإنارةِ معرفةِ مجدِ اللهِ في وجهِ يسوعَ المسيح* ولنا هذا الكنزُ في آنيَةٍ خَزَفيَّةٍ ليكونَ فضلُ القوَّةِ لله لا منَّا* مُتضايقينَ في كلِّ شيءٍ ولكن غيرَ مُنحصرين. ومُتحيِّرين ولكن غيرَ يائسين* ومُضطَهدين ولكن غيرَ مخذولين. ومطروحين ولكن غيرَ هالِكين* حاملينَ في الجسدِ كلَّ حينٍ إماتةَ الربِّ يسوعَ لتظهرَ حياةُ يسوعَ أيضاً في أجسادِنا* لأنَّا نحن الأحياءَ نُسلَّمُ دائماً إلى الموتِ من أجلِ يسوعَ لتظهرَ حياةُ المسيحِ أيضاً في أجسادِنا المائتة* فالموتُ إذاً يُجرَى فينا والحياةُ فيكم* فإذ فينا روحُ الإيمانِ بعينه على حسَبِ ما كُتبَ إنّي آمنتُ ولذلك تكلَّمتُ فنحنُ أيضاً نؤمن ولذلك نتكلَّم* عالمينَ أنَّ الذي أقامَ الربَّ يسوعَ سيُقيمنا نحن أيضاً بيسوعَ فننتصب معكم*

أحد الأعمى

بعض الفكر اللاهوتي زمانَ إسرائيل القديم كان يقول بأنّ الإنسان ممكن أن يُخطئ وهو ما زال جنيناً يتكوّن في رحم أمه. يُذكر في سِفر التكوين أن التوأمين تزاحما في بطن رفقا (٢٥: ٢٢) وتصارعا فأحزنها هذا كثيراً. آخرون كانوا يقولون بأن الله يعاقب الوالدين على خطاياهم بأمراض في أبنائهم تلازمهم مدى الحياة. مصدر هذا الفكر كان آيات من التوراة والأنبياء والمزامير أساء معلّمو إسرائيل فهمها عندما حاولوا فهم وتفسير حالات التشوّه الخَلْقي، كحال المولود أعمى الذي نحن بصدده هنا. تلاميذ المسيح هم أبناء تلك البيئة وتأثروا بتلك التفسيرات. «مَن أخطأ هذا أم أبواه حتى وُلد أعمى؟» نراهم يسألون المعلّم وكأنّهم يقولون أنّه لا سبب لهذه العاهة إلا عقاب الله المباشر. هذه نزعة بشرية عفوية، ونحن ما زلنا نميل إلى أن ننسب إلى الله الأمور التي يعسر علينا فهمها مما نعتبره «ظلم الحياة». أما المسيح ربّنا فنراه يرتقي بهم إلى مستوى آخر كلياً إذ يقول: «لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه». طبعاً لا يقول المسيح هنا أن هذا الإنسان بالتحديد ووالديه هم «بلا خطيئة». لكن كأنّنا به يقول للتلاميذ آنذاك ولنا: «دعونا من التساؤلات العقيمة ومن إدانة هذا وذاك، ووجّهوا بالحري أنظاركم إلى مقاصد الله الخلاصية».

العدد ٢٠١٤/٢١

الأحد ٢٥ أيار

أحد الأعمى

وجود هامة السابق ثالثاً

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الثامن

نعرف من سِفر التكوين أن الله بعدما أتمّ خَلق الكون والإنسان نظر إلى «كل ما عمله فإذا هو حسن جداً» (١: ٣١). ونعرف أيضاً أن العطب الذي أصاب الخليقة وأدخل إليها الألم والموت ليس من أصلها بل من دخول الخطيئة إليها. أي أن الإنسان، المتسيّد على سائر الخليقة بأمر الله (تكوين ١: ٢٨)، لما سقط في الخطيئة فقَد عِشرته مع الله ففقد معها إلفته وتناغمه مع باقي الخليقة، وأفقَد باقي الخليقة إلفتها وتناغمها فيما بينها. مذذاك دخل الفساد إلى البشرية وصارت تمرض وتموت. لسنا هنا بصدد تعداد للأمراض، بل ما يهمّنا الإضاءة عليه هو أن أصل العلل – أكانت أَلَماً أو مرضاً أو عاهات أو كوارث طبيعية وغيرها – نقول أصل العلل واحد مهما تفرّعت

لأنَّ كلَّ شيءٍ هو من أجلِكم لكي تتكاثر النعمةُ بشكرِ الأكثرينَ فتزدادَ لمجدِ الله.

الإنجيل

(يوحنا ٩: ١–٣٨)

في ذلك الزمان فيما يسوع مجتازٌ رأى إنساناً أعمى منذُ مولده* فسأله تلاميذُه قائلين يا ربُّ من أخطأ أهذا أم أبواه حتى وُلد أعمى* أجاب يسوعُ لا هذا أخطأ ولا أبواهُ. لكن لتظهرَ أعمالُ الله فيه* ينبغي لي أن أعمل أعمالَ الذي أرسلني ما دام نهارٌ. يأتي ليلٌ حين لا يستطيع أحدٌ أن يعمل* ما دمت في العالم فأنا نورُ العالم* قال هذا وتفل على الأرض وصنع من تفلته طيناً وطلى بالطين عيني الأعمى* وقال له اذهب واغتسل في بركة سلوامَ (الذي تفسيرُه المرسَل). فمضى واغتسل وعاد بصيراً* فالجيران والذين كانوا يرونه من قبلُ أنَّه كان أعمى قالوا أليس هذا هو الذي كان يجلِسُ ويستعطي. فقال بعضهم هذا هو* وآخرون قالوا إنَّه يشبهه. وأمَّا هو فكان يقول إنّي أنا هو* فقالوا له كيف انفَتحتْ عيناك* أجاب ذاك وقال إنسانٌ يقالُ له يسوعُ صنع طيناً وطلى عينيَّ وقال لي اذهب إلى بركةِ سلوامَ واغتسل. فمضيتُ واغتسلتُ فأبصَرْتُ*

المسببات المباشرة وتنوّعت. فقدان الخليقة لإلفتها مع الخالق أفقدها حُسنَ تناغمها، وأفقدها مناعتها. من جهة أخرى، متى لاحظنا قدرة الإنسان (وسائر المخلوقات) على التأقلم بحدّ من الإيجابية مع تبدّل واقعه، لا يسعنا إلا أن نرى يد الله، وكأننا بالله يبثّ في الإنسان، بخَفَر، طاقة التعويض دون أن يفرض عليه الصلاح فرضاً. «أنظر قد جعلت اليوم قدّامك الموت والخير، الحياة والشر»، يقول السيد الرب (تثنية ٣٠: ١٥). مثالاً على طاقة التعويض هذه، معلوم أنّه عندما يفقد الإنسان إحدى حواسه، نرى الحواس الباقية تزداد قدرة ودقّة فتعوّض معاً نقص الحاسة المفقودة. لا بد من الإشارة هنا إلى أنّه بقولنا «لا يسعنا إلا أن نرى يد الله»، لسنا نلغي العلم ورأيه وتفاسيره بل نسعى إلى أن نرتقي بالنظر والذهن عن محدودية الأسباب المباشرة إلى عظمة مقاصد الله الخلاصية. هذا ما أراده المسيح بجوابه للتلاميذ.

ومن أجل أن تبقى مقاربتنا لمقاصد الله غير مشوّهة، لا بد من التشديد على أن الحياة بما فيها وما حولها هي هبة من الله وليست حقاً مُكتَسباً لمن أُعطيت له. والهبة تبقى هبة إلى أن تعود إلى الله، واهبها. أنت لا يحق لك أن تنهي حياتك متى شئت، بحجة أنّها ملكك كما أنّه لا يحقّ لك أن تشوّه جسدك كيفما شئت، بحجة أنّه جسدك وأنت حرّ أن تتصرّف به كما تشاء. في السياق نفسه، الحياة بما فيها من صحة نفسية وجسدية وأعضاء وحواس ليست حقاً مكتسباً للإنسان إن أخذها كاملة، كذلك إن نقص من هذه المكوّنات شيء لا يكون انتقاصاً لحقّ من حقوق الإنسان.

هذا، إذاً، من جهة مقاربتنا نحن البشر لمسألة القصد الإلهي. أما من جهة الله، فلنا التعليم تلو التعليم، على مدى التاريخ الإلهي وفي اختبار وتعاليم الذين عاشروا الله في كل زمان ومكان، كيف أنّ الله ما انفكّ يحمل هَمّ الخليقة ويعمل لخلاصها. أبالناموس والأنبياء والأحداث الخلاصية الكثيرة قديماً، أم بالتجسّد والفداء الإلهيّين «لما حان ملء الزمان»، والممتدّة مفاعيلهما إلى انتهاء الدهر... «أبي يعمل حتى الآن وأنا أيضاً أعمل»، قال ربّنا يسوع المسيح (يو ٥: ١٧). هذا ولنا أيضاً اليقين، من مواضع عديدة في الكتاب الإلهي ومن خبرة القديسين على امتداد الزمن، أن الله لا يسهر علينا ويرعانا وحسب بل وخاصة يحسّ بأحاسيسنا، يأخذ في ذاته ألمنا ويشاركنا فيه. في سِفر إشعياء نقرأ «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلّصهم» (٦٣: ٩). طبعاً يستحيل علينا الإحاطة بأنواع وأشكال مراحم الله وحنانه للإنسان، ولكننا نرى في هذه الآية من سِفر إشعياء، وكثيرات غيرها، كواقع لا لبس فيه كم أن الله حاضر «هنا والآن»، ولا سيّما في الصعاب. «معه أنا في الضيق، أنقذه وأمجده، من طول الأيام أشبعه، وأريه خلاصي» (مز ٩٠: ١٥–١٦).

إن قال ربّنا يسوع المسيح «لكن لتظهر أعمال الله فيه» فهو قطعاً لا يعني أن الله يتعمّد خلق عاهات أو أمراض لكي يُظهر فيما بعد مجدَه فيها. الكلمة الأزلي ابن الله الوحيد لم يتجسّد من أجل أن يستعمل مأساتنا وعاهات روحنا مسرحاً لاستعراض قوته. حاشا! ابن الله أخذ طبيعتنا من أجل أن يصحّح، بكماله، عاهاتها. هذا المولود أعمى حالة أنتجها العطب الذي أصاب

فقالوا له أين ذاك. فقال لا أعلمُ* فأتوا به أي بالذي كان قبلاً أعمى إلى الفريسيين* وكان حين صنع يسوعُ الطينَ وفتح عينيه يومُ سبت* فسألهُ الفريسيون أيضاً كيف أبصر. فقال لهم جعل على عينيَّ طيناً ثمَّ اغتسلتُ فأنا الآن أُبصِرُ* فقال قومٌ من الفريسيين هذا الإنسانُ ليس من الله لأنَّه لا يحفظُ السبتَ. آخرون قالوا كيف يقدِر إنسانٌ خاطئٌ أن يعمل مثلَ هذه الآيات. فوقع بينهم شِقاقٌ* فقالوا أيضاً للأعمى ماذا تقولُ أنت عنه من حيث إنَّه فتح عينيك. فقال إنَّه نبيٌّ* ولم يصدِّقِ اليهود عنه أنَّه كان أعمى فأبصر حتى دعوا أبوي الذي أبصر* وسألوهما قائلينَ أهذا هو ابنُكما الذي تقولان إنَّه وُلد أعمى. فكيف أبصرَ الآنَ* أجابهم أبواهُ وقالا نحن نعلمُ أنَّ هذا وَلَدُنا وأنَّه وُلد أعمى* وأمَّا كيف أبصر الآن فلا نعلم أو من فتح عينيهِ فنحن لا نعلم. هو كاملُ السنّ فاسألوه فهو يتكلّم عن نفسه* قال أبواهُ هذا لأنَّهما كانا يخافانِ من اليهود لأنَّ اليهود كانوا قد تعاهدوا أنَّه إن اعترف أحدٌ بأنَّه المسيحُ يُخرَجُ من المجمع* فلذلك قال أبواه هو كاملُ السنِّ فاسألوهُ* فدعوا ثانيةً الإنسانَ الذي كان

الطبيعة البشرية منذ السقوط. أما ربّنا المبارك فنراه هنا يأتي إليه من تلقاء نفسه، لا ليشفيه وحسب بل ليجعل من حالته وحالة أمثاله فرصة لإعلان عطف الله ومحبّته بل وتبنّيه للنقص الذي سبّبه إخفاق الطبيعة. الظاهر في المعجزة بحدّ ذاتها أن الخالق يصحّح الخلل الجسدي. هذا باهر للغاية بلا شك ولكن ابن الله لم ينزل من السماء لكي يصحح نواقصنا الجسدية بل ليزيل عمانا الروحي فنرى الله. هذا هو معنى قول الرب «ما دمت في العالم فأنا نور العالم». ما دام المسيح في العالم فهو يعطي من ذاته، لأجل حياة الإنسان في العالم. مَن كان قادراً أن يعيد خلق أداة البصر الحسّي ويعيد إليها النور فهو حتماً «النور الحقيقي» المانح نور الرؤية للعالم ما دام في العالم. هذا الكلام حققته حرفياً معجزة إبصار المولود أعمى: صارت له عينان حسيتان ليبصر، ونمت فيه عينان روحيّتان فرأى أولاً ضلال مَن كانوا ضد المسيح، ثم رأى أنه لا خلاص إلا في المسيح ابن الله. إذذاك استنار بجملته «فقال: أؤمن يا سيد، وسجد له» (يو ٩: ٣٨).

رجاء الصعود

عيد الصعود الإلهي الذي نعيِّد له الخميس القادم، في اليوم الأربعين بعد الفصح، هو تذكار صعود ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح إلى السموات بعد أن أتم كل ما جاء عنه في الكتب. هي المرّة الثانية التي يودّع فيها الرب تلاميذه. في المرّة الأولى أنبأهم مراراً بصلبه ولكنّهم ما فهموا معنى ذلك. حينها، خافوا وارتعدوا متفرّقين إلى أن ظهر لهم بعد القيامة. في الصعود يغادر الرب تلاميذه مرّةً أخرى لكنه هذه المرّة يخبرهم بأنّهم لن يروه مجدّداً إلى أن يأتي في مجيئه الثاني في اليوم الأخير. كان من الواقعيّ أن يُدخل هذا الوداع الخوف إلى قلوبهم، فالمعلّم الذي تثبّتوا أنّه الرب وهو الذي قهر الموت قائماً، يُعلمهم بأنّه سيغادرهم. إلاّ أنّ الرب لم يتركهم مطلقاً في خوفهم بل زرع فيهم رجاءً. الخوف من فراق الرب تحوّل إلى رجاء من خلال الإيمان بكلمة الرب ووعده بأن يرسل إليهم المعزّي: «أوصاهم ألاّ يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه عني... فستعمَّدون بالروح القدس» (أع ١: ٤–٥). وفي الصعود رجاءٌ أيضاً من خلال قول الملاك بأنّه «سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء» (أع١: ١١).

الرجاء الأول الذي يحمله عيد الصعود للإنسانيّة كما أشرنا هو موعد الروح القدس. العناية الإلهيّة التي لم تكن محصورةً في العهد القديم بالشعب الإسرائيلي فقط، لم تتوقّف مع صعود الرب يسوع. فهذه العناية تستمرّ إلى المنتهى حتى بعد مغادرته العالم بالجسد. العناية الإلهيّة رافقت تاريخ البشريّة منذ الخلق، والله لم يترك شعبه عند الصعود، بل أعطى وعده للتلاميذ بأنّ رجاءهم هو في إستمرار عنايته بهم إذ هو مرسل الروح القدس ليقودهم في حياتهم. تشير طروباريّة العيد إلى الفرح الذي ألقاه المسيح في قلوب تلاميذه من خلال وعده لهم «وفرّحت تلاميذك بموعد الروح القدس». هذا الروح هو الذي سيقود المؤمنين في حياتهم إلى حين المجيء الثاني: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله... لا أترككم يتامى إني آتي إليكم» (يو ١٤: ١٦–١٩)، «وأما

أعمى وقالوا له أعطِ مجداً لله. فإنّا نعلم أنّ هذا الإنسان خاطئٌ* فأجاب ذاك وقال: أخاطئٌ هو لا أعلمُ. إنّما أعلم شيئاً واحداً أني كنت أعمى والآن أنا أُبصِرُ* فقالوا له أيضاً ماذا صنع بك. كيف فتح عينيك* أجابهم قد أخبرتكم فلم تسمعوا. فماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً. ألعلّكم أنتم أيضاً تريدون أن تصيروا له تلاميذ* فشتموه وقالوا له أنت تلميذ ذاك. فأمّا نحن فإنّا تلاميذُ موسى* ونحن نعلم أنّ الله قد كلّم موسى* فأمّا هذا فلا نعلم من أين هو* أجاب الرجلُ وقال لهم إنّ في هذا عجباً أنّكم ما تعلمون من أين هو وقد فتح عينيّ* ونحن نعلم أنّ الله لا يسمعُ للخطأة. ولكن إذا أحدٌ اتّقى الله وعمِلَ مشيئتَه فله يستجيب* منذ الدهر لم يُسمَع أنّ أحداً فتح عيني مولودٍ أعمى* فلو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل شيئاً* أجابوه وقالوا له إنّك في الخطايا قد وُلدتَ بجملتِك. أفأنت تعلّمنا. فأخرجوه خارجاً* وسمع يسوعُ أنّهم أخرجوه خارجاً. فوجده وقال له أتؤمنُ أنت بابنِ الله فأجاب ذاك وقال فمن هو يا سيّدُ لأؤمن به* فقال له يسوع قد رأيته والذي يتكلّمُ معك هو هو* فقال له قد آمنت يا ربُّ وسجد له.

متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو ١٦: ١٣).

إذاً العناية الإلهية، التي تجلّت بمحبّة المسيح لنا إذ صُلب ومات من أجلنا، هي رجاء وفرح البشرية. تثمر المحبّة عند المؤمن عندما ينال الروح القدس فيكون الإنسان على تواصل بالعناية الإلهيّة ومشمولاً بها. مهما تكاثرت المشاكل والمصاعب الحياتيّة يجب على المؤمن أن لا يستسلم بل ينبغي أن يضع رجاءه على الله ويُلقي عنده أثقاله وهو يريحه إن آمن وعمل وصاياه. فالمؤمن ليس وحيداً بل مشمولاً بعناية الرب إذ لم نعد كالشعب في العهد القديم الذي يقول عنه الرسول بولس «إنكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد لا رجاء لكم وبلا إله في العالم» (أف ٢: ١٢). في عيد الصعود يتجلّى لنا الرجاء البشري بالوعد الإلهي وبالمعونة الإلهيّة إذ قال الرب: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (متى ١١: ٢٨). فالله لم يتركنا وإن ارتفع الرب يسوع إلى السماء بل هو معتنٍ بنا من خلال الروح القدس الذي أرسله ليؤازرنا.

الرجاء الثاني الذي يحمله هذا العيد المبارك إلى المؤمنين هو الرجاء بتحقيق وعد المجيء الثاني. فعندما كان التلاميذ منذهلين من رؤية المسيح صاعداً في السحاب كما يخبرنا الكتاب المقدّس، أشار إليهم الملاك قائلاً «إن يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء» (أع ١: ١١). بقوله سيأتي ينبئهم عن الوعد بالمجيء الثاني. المجيء الثاني رجاءٌ لأنه يحمل إلى القلب البشري الأمل بلقاء الرب يسوع ثانيةً. تحدّث الرب يسوع مراراً عن أنّ ابن البشر سيأتي ليدين العالم في مجيئه الثاني، وهذه النقطة تبقى غامضةً بالنسبة للمؤمن وغير المؤمن على حدٍ سواء. طبعاً لا يمكن لأحدٍ أن يفهم جليًّا الأمور الإلهيَّة إذ قال «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات» (أع ١: ٧). إلاّ أنّ الكتاب في أكثر من مكان يشير بنبوءات إلى الأمور المستقبليّة، وهنا يصوّر الملاك لنا هذا المجيء ليكون رجاؤنا واقعيًّا غير مبنيٍ على المجهول. نشير هنا إلى أنّه في التقليد الكنسي، ترمز أيقونة الصعود إلى المجيء الثاني أيضاً لذا نجدها أحياناً في قبّة بعض الكنائس بدل أيقونة الضابط الكلّ. فالذي صعد هو الذي سوف يأتي.

يعلّمنا هذا العيد أنّ التلاميذ تسلّحوا برجاء مبنيٍّ على وعد الله لهم. واظبوا على الصلاة بعد صعود الرب يسوع وتحقّق لهم الرجاء بحلول الروح القدس في يوم العنصرة ولا يزال هذا الوعد يتحقق معنا شخصيًّا عندما ننال سرّ العماد المقدّس. وإذ ثبتوا على الرجاء واجهوا الإضطهادات والمصاعب واضعين رجاءهم على الله الذي أرسل لهم الروح القدس، ومتوقّعين رؤية الرب يسوع مجدّداً آتياً ليدين العالم، مهيّئين أنفسهم لهذا اللقاء، تهيئةً مدعوّون إليها نحن أيضاً بوصية الرسول بولس «لابسين درعَ الإيمان والمحبة وخوذة هي رجاء الخلاص» (١ تسا ٥: ٨).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb